الجزائر أو قبلة الدارسين وملتقى العارفين

(قراءة في كتابات الأستاذ العلاّمة في تاريخ الجزائر العثمانية مولاي بالحميسي [1])

أ.د/ إبراهيم سعيـود

جامعة الجزائر 2

الملخص:

هذه القراءة لكتابات الأستاذ مولاي بالحميسي، هي دعوة لاكتشاف بعض المناحي المجهولة في تاريخ الجزائر، ويتعلّق الموضوع بالتاريخ الثقافي لمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية.

مدينة الجزائر التي أصبحت عاصمة للنظام الجديد، الذي تأسس خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي، أي النظام العثماني،وبعد التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، سرعان ما تحوّلت إلى ملتقى لعدد معتبر من العلماء خلال تلك الفترة.

وفي إطار هذه القراءة، أردت أن أتأمّل الحالة الثقافية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك من خلال تفحّص لبحث مرقون ، سلّم إلي من طرف الأستاذ بالحميسي باعتباري طالبا

باحثا تحت إشرافه، وكان ذلك سنة 1999. رحم الله أستاذي وجعل علمه في ميزان حسناته.

الكلمات المفتاحية: بالحميسي مولاي، الجزائر، التاريخ الثقافي، الدولة العثمانية.

Résumé :

Cette lecture des écrits du Professeur, Mouley Belhamissi, est une invitation à la découverte de parages inconnus de l'histoire d'Alger. Il s'agit de l'histoire culturelle de la ville d'Alger à l'époque Ottomane.

Alger, qui était à la fois, Capitale du nouveau régime installé au XVI^{e} siècle, c'est-à-dire celui des Ottomans, est rapidement devenue désormais un forum pour un nombre considérable de savants à cette époque.

Dans le cadre de cette lecture, je voudrais envisager l'état culturel à Alger Ottomane, en examinant un document dactylographié, qui m'a été remis en 1999, par le Professeur M. Belhamissi, en tant qu'étudiant chercheur préparant sous sa direction, une thèse sur les relations entre l'Algérie et l'Italie à l'époque Ottomane.

Mots clés : Belhamissi Mouley, Alger, Histoire culturelle, Etat Ottoman.

Abstract : This reading of Professor Mouley Belahmissi's writings is an invitation for exploring some unknown aspects in the history of Algeria. The topic is concerned with the cultural history of Algiers during the Ottoman era. Algiers became the capital of the new

system, established in the 10th century of Hegira -16th century- ; that is to say, the Ottoman system after the joining of Algeria to the Ottoman Empire. Algiers had been quickly transformed into a forum to a considerable number of scholars during that period. I intend to thoroughly observe the cultural state in Algiers during the Ottoman epoch throughout examining a typed document. The latter was held to me by Pr. Belahmissi –may God have mercy upon his soul- as I was a student-researcher under his supervision in 1999.

Key words: Belahmissi Mouley, Algiers, Cultural history, Ottoman state.

لقد أولى الأستاذ مولاي بالحميسي اهتماما كبيرا بدراسة التاريخ الحديث، والكتابة فيه، وفي مقدمته ما تعلّق بالجزائر خلال الفترة العثمانية، خاصة تاريخ البحرية الجزائرية، وعلاقات الجزائر مع أقطار المغرب الإسلامي، والعلاقات المتوسطية مع الأقطار المسيحية في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

ويعدّ ما كتبه حول مدينة الجزائر - باعتبارها قبلة للدارسين وملتقى للعارفين - تأسيسا لترابط وتكامل بين العلامة الثقافية والصورة الاجتماعية والكتابة التاريخية، وذلك من أجل إبراز أوجه الثقافة المتعددة والمتنوعة لهذه المدينة قبيل وخلال العهد العثماني.

لقد انطلقت كتابات الأستاذ مولاي بالحميسي في هذا الصدد، من تصور للثقافة الجزائرية باعتبارها إرثا حضاريا متواصلا تتقاطع في تشكيله وتكوينه عوالم جغرافية متجاورة ومتفاعلة، انطلاقا من الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة المتوسطية بفرعيها المغاربي والأندلسي.

إن ما كتبه الأستاذ مولاي بالحميسي، حول التعليم والعلم والعلماء، وكذا المدارس التعليمية في مدينة الجزائر، هو بالأساس مشروع، يهدف إلى وضع معالم ومراجع للمؤسسات التعليمية في مدينة الجزائر لجعلها في متناول الباحثين في تاريخ الجزائر العثمانية، وبالتالي يمكن لهذا المشروع أن يوثّق للحركة الثقافية والتعريف بها بكيفية أكاديمية سليمة، وذلك بقصد الرّد على المفاهيم، والصيّغ، والتصورات والمصطلحات التي تميزت بمظاهر الانحرافات والتشويه التي لحقت بتاريخ الجزائر العثمانية، والتي تتطلب المراجعة والتصحيح.

لقد أصبح تاريخ الجزائر العثماني بفضل كتابات الأستاذ مولاي بالحميسي علما منهجيا راسخا، ولم يعد سردا للحوادث بل تعليلا لها، وهذا ما نلاحظه في كتبه ومقالاته. ولعل هذا يعود بالدرجة الأولى إلى اعتماده على الوثائق المحفوظة في علب الأرشيف في

الجزائر وباريس وأكس ومرسيليا وغيرها.وبذلك فقد أسس الأستاذ بلحميسي لمدرسة جزائرية عثمانية للتاريخ الحديث. [2]

رد الأستاذ مولاي بالحميسي على المغرضين وأصحاب الأقلام المأجورة :

وصف الدكتور مولاي بالحميسي المغرضين من الغربيين أثناء الفترة العثمانية والمستعمرون بعد 1830، بأن كتاباتهم تميزت بكونها سموم القدح والتحقير، وذلك لأنهم تبنوا أطروحات مبنية على طمس الحقيقة وتشويه الواقع.

فما أكثر ما كتب دعاة التغريب والتضليل عن جدب الحياة الفكرية وعقمها وركود نشاطها. وأنكروا وجود أي أثر للعلوم والتعليم والابداع، ونسبوا للأهالي العجز والكسل والجمود، بل والنفور من كل ما من شأنه غذاء الرّوح حتى زعموا وألحوا على أن هؤلاء أبعد خلق الله عن " القرطاس والقلم ".

يؤكد الأستاذ مولاي بالحميسي أن أهداف هذه الفئة جليّة وأغراضها واضحة وهي تكمن فيما يلي :

- تبرير الاحتلال وتعليل هيمنته باسم الحضارة والعمران.

- أن أغلب تقارير القناصل المقيمين في الجزائر، وكذا مراسلات الجواسيس وكتابات الرهبان والرحّالة وأيضا كتابات الأسرى المسيحيين كانت تحذو حذو المؤرخين.
- أن هؤلاء لم يحتكوا بالسكان احتكاكا كافيا، لذلك اقتنعوا بالأفكار المسبقة والروايات الضالّة والأغلاط المقصودة.
- يستدل الأستاذ مولاي بالحميسي بما كتبه وليام شيلر، قنصل الولايات المتحدة الذي شاهد السنوات الأخيرة للوجود العثماني بالجزائر، باعتباره أصدق نموذج للتغليط والتضليل حيث قال:" لا فائدة في التحدّث عن وضعية العلوم بالجزائر فهي– أي العلوم – مفقودة أو مستخفّ بها، وأن ادبهم هو القرآن..." [3] وهذا نمط من الغلوّ والتنكر، بل أنه لم يطّلع على ما جادت به قرائح أهل الجزائر، ولكنّه الغلو والتعصب في أعلى مراتبه. [4]

الرحلة في طلب العلم

ينوّه الأستاذ مولاي بالحميسي رحمة الله عليه، بالإقبال على أهل العلم والورع من المشايخ والعلماء، إذ يؤكد أنه لم يفت أصحاب الرحلات والتراجم – مشارقة كانوا أم أندلسيين أو مغاربة – ذكر ما عاينوه من دروس في المساجد، وكيف يتوق المتعطشون للمعرفة والى مطالعة الكتب النادرة، ويضرب لنا أمثلة عن هؤلاء فيقول:

- هذا عبد الباسط بن خليل الملطي [5]صاحب كتاب " الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم " يحل بمدينة الجزائر سنة 868هـ/1464م فيقول: " دخلنا الجزائر وتبركت بسيدنا الشيخ العالم سيدي عبد الرحمان الثعالبي [6]وسمعنا شيئا من فوائده وسألته بعض الأسئلة كانت تشكّل عليّ وأفادنيها على أحسن وجه.

واشتهر الثعالبي في الأوساط الافريقيـة والمشرقيـة – مع ما تحلى به من المعارف والمحامد – ممّا زاد في ترقيتها وشهرتها، وكان مدرّسا بارعا فتخرّج على يده جمع من الطلبة من بينهم مرزوق الكفيف ومحمد بن عبد الكريم المغيلي وهما من علماء تلمسان وكذلك أحمد بن أحمد ...البرنسي الفاسي الشهير بزروق.

- برزت نخبة أخرى من العلماء مثل عبد الرحمان الجزائري الذي رحل إلى إشبيليا ودرس على مشايخها، وكذلك ابن زروق الذي قيل أنه أول من أدخل كتاب " الأنوار " إلى العدوة " الأندلس "

وعندما أصيب أهل الأندلس بالنكبة الكبرى [7]وغلبوا على أمرهم، نزحت منذ البداية جالية كبيرة إلى المغرب الأوسط وكثيرها نزل بالجزائر وساهم في نشر المعارف بشتى أصنافها. ومن بين أعلام ذلك العصر، يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي:

- **أحمد بن بركات الجزائري** [8]المكنّى بأبي الخير له كتاب شرح ابن الحاجب ومن تلامذته **أحمد بن يحي الونشريسي صاحب** " المعيار المعرب في فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب ".
- **أحمد بن محمد المحدث** الذي سافر للمشرق لإتمام تعليمه وبقي مدّة إلى أن توفي بغزّةسنة 760هـ / 1359م.
- **عبد الحق بن علي الجزائري** من المالكية وقضاة المدينة، له فتاوى أدرجها أبو زكريا يحي المغيلي صاحب " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" [9]وقائمة الفقهاء طويلة وجديرة بالدراسة الموسعة كما ذكر الأستاذ بالحميسي رحمة الله عليه.

والحقيقة الجلية أن هذه الحقبة التي امتدت إلى مطلع القرن السادس عشر ميلادي، قد تميزت بعامل موات للدراسة والتفكير، هذا العامل تمثّل في الوضع آنذاك وكذلك الموقع. وقد استشهد الأستاذ بالحميسي في ذلك بما ذكره بعض المعاصرين للفترة.

- قال الشريف الادريسي: " مدينة الجزائر ... عامرة آهله وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة..."
- وقال بعده الرحّالة المغربي محمد العبدري: " مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، وقد حازت

ميزتي البرّ والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق..."

- وأما أبو البقاء البلوي [10] فقد قال عندما نزل بالجزائر: " فرأيت محيا صبيحا، وترتيبا مليحا، ومسجدا عتيقا، وبناء أنيقا، وأناسا قد سلكوا إلى الحسن والإحسان طريقا ".

ومن صفوة ما كتبه الأستاذ بالحميسي، أن هذه المزايا كلها اختارها جمع من الرّاغبين في العلوم. فالوسط أليق والظروف سانحة، والمشايخ ساهرون على على تعاليم الدين والشريعة وتفسير الحديث " رواية ودراية " وكذلك فنون اللغة " وعلوم الآلة " (القواعد).

وفعلا فقد أخذ هؤلاء المشايخ القاطن والزائر بعد الجهد العجيب والسّعي المحمود والصبر المتين لتحصيل المزيد ونيل المفيد حتى ينسى الطالب الأسفار الشاقّة والرّحلات المرهقة والاغتراب المؤلم...

والحقيقة التي لا يجب إغفالها أن عددا من علماء الجزائر ، رحلوا أيضا إلى المغرب لنشر علومهم وللاستفادة أيضا من دور العلم وخاصة في مدينة فاس [11].

مدى اهتمام الجزائر المحروسة بالتعليم بطوريه أو " النهضة الجديدة

يعد القرن السادس عشر قرنا مفصليا في تاريخ منطقة المغرب الإسلامي [12] وقد عرفت الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي مضايقات الأسبان واستفزازاتهم واحتلالهم لمدن ساحلية إستراتيجية [13] حينئذ كيف تنجو الجزائر؟

تنجو الجزائر بقدوم الأتراك العثمانيين، أي بقدوم الإخوة بربروس [14] يذكر الأستاذ بالحميسي في هذا الشأن أن الحاكم الجديد [15] اختار مدينة الجزائر مقرا له، وحولها من بلدة متواضعة إلى عاصمة دوّخ صيتها بلدانا وأمما. فكثرت الهيئات والمنشآت والمراكز، وتزايد بها عدد السكّان الذين نعموا بالاستقرار وقد ذهب عنهم الخوف وعاد إليهم الأمل والنّشاط وروح المبادرة [16] وفي هذا الجو الجديد المواتي انتشر التعليم في طوريه الأول والثاني فتعددت الكتاتيب والمعاهد زاد الإقبال عليها.

الطور الأول من التعليم.

يرى الأستاذ بالحميسي أن المجتمع الجزائري ميال فطريا للتعلم، وكان للناس في مدينة الجزائر حس ووعي ، وبفضل هذا الحس والوعي لم يدّخر المجتمع جهدا من أجل فتح المدارس، وفي مقدمتها

المدارس القرآنية للصبيان ولم يكن يخلو مسجدا من مساجد الجزائر من هذه المدارس تقريبا، وكانت تبنى المدارس من محصول الأوقاف- وبخاصة فحص مدينة الجزائر [17] والصدقات والمبادرات [18] وكان السكان أحرص الناس على تعليم أولادهم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن. فلا يخلو نهج أو حارة من " مسيد" [19]ويشير الأستاذ مولاي بالحميسي الى ما ذكره عبد الرحمان الجماعي [20] في رحلته حول هذه الظاهرة فقال: " فهي (أي الجزائر) والحمد لله إلى الآن الجوهر الفرد في الأدب وعلم العقل والنقل وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل... وهذه المدينة لا تخلو من قرّاء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة وقد ذكرت ما فيه غنيمة من علمائها الاخيار وكلّهم متحلّون بأحسن الصفات، متضلّعون بعلم النحو والفقه والحديث... وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب ملأى بالأولاد حبت أن المحل الذي لا يسع التلاميذ يجعلون فيه سدّة يصعدون إليها الدرج يتعلّمون والكتابة ويحفظون القرآن العظيم وحفّاظه كانوا كثيرين..."

ويؤكد هذا القول ما كتبه بعض الغربيين ممن زاروا البلاد وخاصة العاصمة [21] فيما كان للأولياء من اهتمام فائق بختم المصحف الشريف. وكان منهج التعليم بسيطا والطريقة سهلة للغاية، ويورد الأستاذ بالحميسي ما قاله الرّحالة الإيطالي في رحلته إلى الجزائر: " فالمعلّم يسطر الحروف بعود على "اللوحة" المصلصلة وما على التلميذ إلا أن يقلّده بقلمه القصبي [22].

كان الآباء ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الموعود وهو ختم أولادهم القرآن فتقام الأفراح في البيت وخارجه وتتواصل في الأزقة، ويورد الأستاذ بالحميسي شهادة بيتيس [23] دي لاكروا (Petis de LaCroix) [24] الذي كان في الجزائر سنة 1695.

ومعظم الكتاتيب آنذاك دكاكين أو أضرحة الأولياء أو جناح مسجد. وكانت المساجد للصلوات وللتعليم معا، وعليه فقد كان التعليم يعتبر من القواعد الأساسية التي ساعدت على ازدهار الثقافة وانتشارها في المجتمع.

الطور الثاني من التعليم.

كان هذا الطور خاصّا بالراغبين في الدراسات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير ومنطق وتوحيد وقواعد... ولهذه المواد الزوايا التي

احتلّت الصدارة لا في التدريس فقط بل في عقد الحلقات وإثارة المناظرات [25].

وأنشئت هذه المؤسسات لتكون أيضا ملجأ للطلبة المعوزين وللعلماء الغرباء، فيها المأوى مجانا وفيها ما يحتاج إليه الطالب من ماء للشرب والوضوء وإليها يؤتى بالصدقات، ويشير الأستاذ بالحميسي إلى إحدى هذه الزوايا [26].

وكان بجامع سيدي رمضان قسم لتعليم الحساب والتوقيت (تحديد أوقات الصلاة ومراعاة الأهلّة). وكان لزاوية سيدي احمد بن عبد الله الزواوي [27] بنهج سوق الجمعة نفس النشاط ونفس الأجهزة وكذلك زاوية الأندلس.

وفي منهجهم لكل مادة تدرّس شيخها – أو شيوخها – بموجب التخصص ولكل مادّة كتاب مقرر عرف رواجا يرجع إليه [28] وقد أطلعنا على هذا الاجتهاد بالتفاصيل العلامّة محمد بن قاسم بن زكور الفاسي 1075- 1120هـ/1663- 1708م عندما قدم من المغرب إلى الجزائر لإتمام تعلّمه وإشباع شهيته الفكرية على يد نخبة من المشايخ [29] كان الطالب في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني يلازم شيخه سنوات طويلة أو شهورا عديدة يسمع المحاضرات ويحضر الجلسات ويثري المناقشات ويجمع الشارد والوارد

وكان السؤال حرّا والجدال مباحا. ويحفظ الطالب طيلة ملازمته المشايخ المطولات ويهضم الأمّهات.

وفي النهاية – ولابد من نهاية – يسرّح الطالب فيقام حفل مشهود تلقى فيه الخطب والأشعار، ويباركه من في المدينة ونواحيها من الأخيار. ويودع المتخرج من أفادوه وأحسنوا إليه حاملا الإجازة التي من أجلها شدّ الرحال [30].

يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي أن ابن زكور بالأسماء اللامعة آنذاك والتي اغترف من علومهم من أمثال محمد بن المؤمن المانجلاتي المتوفى سنة 1104هـ/ 1693م، ومحمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري [31] والشيخ سعيد قدورة إمام الجامع الكبير [32].

ويقول ابن زكور: " فاهتديت بأنوارهم السنّية إلى قطف ما رقّ من أنوارهم الجنّية، ورتعت في رياض آدابهم، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلّعت... [33] وقد روى كيف تعرضت المدينة لقصف الأميرال الفرنسي دوكين [34]

العاصمة والعاصميون نبع الثقافة الذي لا ينضب

كثيرا ما نزل بالجزائر علماء من المشرق أو المغرب أو الأندلس في طريقهم إلى تحقيق أغراضهم فمكثوا هنا مدّة استغرقت أشهرا في انتظار مركب يقلع أو قافلة تشدّ الرّحال أو وباء يزول.

فوجد هؤلاء الأنس لوحشتهم والأهل لغربتهم فزارهم الأعيان وأكرمهم الحكّام فطاب المقام، وزاد التعارف والتقارب [35] وكان تيّار ذلك العصر يقتضي الضيافة والمجالسة فيتكاثر السؤال، وعلى الزائر الجواب دون غضب أو انفعال [36].

هل كان المناخ في المحروسة مواتيا للعلم ولأهله؟

يورد الأستاذ مولاي بالحميسي شهادات كثير من العلماء، فهذا التمقروتي [37] يقول: " الجزائر عامرة كثيرة الأسواق... فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقيا وأعمر وأكثر تجّارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا حتى إنهم يسمّونها " اصطمبول الصغرى "وطلبة العلم فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا..."

أما الوزير أبو القاسم الزّياني المغربي [38] وقد نزل بالجزائر في ذهابه إلى المشرق وعودته منه شاكرا مادحا الإحسان والمحسنين وحرارة الاستقبال وغزارة التضامن تبجيلا للعلم ولأهله.

وصادف عودة الزياني من المشرق حوادث هامّة منها تجديد جامع كتشاوى [39] على يد الداي حسن باشا فأعجب بما رآه من بناء وهندسة وألوان فسجّل الكل في صفحات لم يسبق لكاتب أن جاد بها.

يقول الزياني في وصف كتشاوى: " تأملته موضعا موضعا وميزت ما فيه من أنواع النّع واختلاف الأشكال ومناسبة الموضوعات من كلّ نوع إلى أن أحصيت جميع أوضاعه... وأنشأت فيه رسالة ولفقت أبياتا في مدحه ومدح بانيه..."

قال على لسان الجامع:

طهّر ثيابك وأحسن الوضوء ولا تنسى التحية إن شاهدت أسراري

وأممن قبتي واقصد إلى قبلتي وسرح الطرف في رياض وأزهاري

حامي لواء الرسول المصطفى حسن فخر الملوك رعاه مولانا الباري [40]

كما قال في وصف كتشاوى: " ...فلو رأته السليمانية في القسطنطينية لسلبها، ولو كلمّته "آية صوفيا " ما أجابها، ولو قابله الجامع الأزهر ، لتعجّب من حسنه، وانبهر، ولو ناظرته مساجد الشام وحلب، لاعترفوا بفضله وأقروا بالغلب، ولو سمعت بتشييده الاشبونة لتهدّمت، ولو شاهدته كنيسة روما العظمى لأسلمت [41].

ويضيف الأستاذ مولاي بالحميسي إلى هذه الثلّة من العلماء، زيارة أبو راس الناصري المعسكري [42] ونزوله بمدينة الجزائر كغيره من القاصدين بيت اللّه الحرام فعرّفنا بالجو المشاهد والعادات الجارية آنذاك: " فأول رحلة للجزائر – صانها الله من سوء الدوائر – فلقيت بها الفقيه محمد بن جعدون [43] فقال لي : من هو شيخك ؟ فقلت المشرفي [44] قال : كان في زمن مضى قدم عندنا هو وشيخه محمد المنوّر . فقلت : كيف وجدت شيخه لما باحثته ؟ قال لي : لا نظير له في تحقيق الكبرى [45] وسكت ولم يزد شيئا وضيّفني.

ولقيت قاضيها الشيخ محمد بن مالك فضيفني وجمع العلماء علي وتمادوا وسألوني أسئلة صعابا فتفاضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر، وأن كلّما سددت عليهم بابا فتحوا لي آخر إلى أن أظهرني اللّه عليهم وسألوني بأجمعهم... وفي صبيحة تلك الليلة جلست في حانوت بعض الطلبة فجاء عالم جليل ..يقال له عبد الرحمن البدوي القرومي فقال من حضر: " هذا من نجبائنا "ففاوضته وسألته عن أشياء فقهية وأصولية ونحوية ولغوية وتوحيدية فبهت ولم يجب بشيء... ولقيت العلاّمة الأمين مفتي الجزائر وخطيبها الحاج علي بن الأمير.

بعد الثقافة الدينية الساحقة هل كان للأدب نصيب ؟

أورد الأستاذ مولاي بالحميسي بأن الثقافة الدينية غطّت الساحة العاصمية، ولكن كان للأدب مجاله ورجاله، إضافة إلى المقامات والأغراض والتاريخ والرحلات والطب والنبات وغيرها من أصناف العلوم.

ذكر الحفناوي في كتابه " تعريف الخلف برجال السلف " 320 ترجمة تغطّي كافة القطر منها 45 للعاصمة وحدها من عرب وترك وبربر ومن طبقات مختلفة.

وللشعر حظ متميز إذ حرّك القرائح وأيقظ المواهب فأنشد الشعراء قصائد تناولت المدائح النبوية والموشّحات والمقطوعات الصوفية والرثاء والوصف والغزل، وإن ضاع الكثير فما وصلنا يدل على الإحساس والذوق السليم.

يستعرض الأستاذ مولاي بالحميسي في حديثه عن إسهامات العاصميين بذكر قصيدتين، نذكر بعض الأبيات في وصف المدينة وما رزقت من جمال ومنحت من خيرات.

قال يحي بن أحمد بن أبي راشد [4 6]

سقى المطر الهطال أرضا تشرّفت بمصر غدت للفضل والفخر جامعه

ب "مزغنة " الفيحاء تظهر من مدى ترى كسقيط الثلج بيضاء ناصعة

بنور السما أبراجها قد تألقت تروقها من أفق الأجنة طالعة

وحيث الربيع الغضّ ثم شبابه ترى أرضها تبدي الغضارة ناجعة [47]

ونبغ كتّاب كثيرون برهنوا على قدرات في موضوعات عديدة، بعض هذا الإنتاج ضاع والبعض أدمج في كتب المتأخرين، والبعض لا زال مخطوطات ينتظر نفض الغبار.

قال الأديب محمد بن رأس العين [48] في رسالة إلى الآستانة يصف أحوال العاصمة حوالي 1057هـ وما اعتراها من عسر بعد يسر وذلك في سجع مستملح وتعبير مستظرف.

"... ذات بساتين وأنهار، وأصوات وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم، ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرّات ومزاحم، مشايخها ثقاة، وكهولها تقاة....وعساكرها غزاة، وفرسانها عقبان، وأفراسها عقيان...لا يقف لبأسهم واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغى عليهم باغية إلا خصموه، ولا طاغية إلا حاربوه فهزموه وفصموه.

والآن ضعفت الرّعية، فعظمت البلية، وحلّت الرزية، وضاق المعاش لمّا كثرت الأوباش، وضاعت الفقراء إذ حارت الأمراء، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، ونغص العيش طاغية [49] من طواغي البادية، وحلّت الدّاهية [50]

يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي، أن من الكتب التي كتبت – في هذه الفترة – كتاب جمع بين التاريخ والحقيقة والخيال محتفظا بنصوص تاريخية نادرة وعنوانه : " **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية** [51] **لمحمد بن ميمون الجزائري** [52]

وخصص ابن ميمون كتابه لفتح وهران أول (1708) والمدينة آنذاك في يد الاسبان منذ 1509، فكان النصر على يد الداي محمّد بكداش (1707- 1710)

وفوائد الكتاب الاخبارية جمّة فهو يكشف عن استعداد الجيش الجزائري، ويصف المعارك الضارية بنواحي وهران ومراحل الهجوم على الأبراج والحصون التي عززها الاسبان، وتضحيات المسلمين والغنائم التي غنموها بتفاصيل وفي وقت قلّت فيه الوثائق العربية، وشحّت أقلام المعاصرين.

وكان المفتي أحمد بن عمّار (توفي 1180هـ) [53] من " نوابغ عصره وأفاضل مصره...

ومحطّ المستفيد والزائر" ذكره أبو راس الناصري المعسكري في رحلته "فتح الإله" : " سلس اللّسان والعبارة، مليح التصريح والإشارة"

وذكر الأستاذ مولاي بالحميسي، ايضا قدور بن محمد بن أرويلة الجزائري [54] وهو فقيه وصوفي ولد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلّم ثم مارس التدريس، وعليه أخذ الشريف الزهّار، ولما احتلّت فرنسا الجزائر إنتقل إلى مليانة فعينه خليفة الأمير كاتبا لرسائله، ثم أصبح كاتبا للأمير ومستشارا له إلى أن أسرته السلطات الفرنسية ثم أفرجت عنه، فأشرق وقصد الحج ثم التحق بالأمير يوم حلّ ببورصة في تركية ولازمه إلى أن أدركه المنون سنة 1272هـ/1855مفكان أعرف الناس بصاحب المقاومة وبتنظيمه وإدارته وحروبه.

وبجانب التاريخ والرحلة لمعت أسماء في فنون أخرى في التطبّب والنبات لا يستهان بقيمتها، وقد انتبه إليها المستشرقون فحللوا بعضها وترجموه وتواصلت عناية آخرين بهذه البحوث مدّة طويلة بعد النكبة الكبرى.

عرف عبد الرزاق بن حمادوش [55] بعدّة أنشطة من البحث إلى الأسفار وقد صب اهتمامه على التجارب والملاحظة خلافا لذوق معاصريه. فمن تصانيفه القاموس المشهور " بكشف الرموز " في جمع أسماء الأعشاب وحلّ أسرارها وبيان منافعها.

وأمّا محمد بن رجب الجزائري فقد انكبّ على مكافحة الأمراض وردّ ويلاتها وله في هذا الغرض: " الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون " [56]

ومن المنشغلين بأحوال الصحّة، كمال محمد بن مصطفى، كان مدرسا بجامع سفير. له كتاب " تنوير الأذهان في الحث على التحرّز وحفظ الأبدان" [57]. وله كتاب آخر سمّاه " الاكتراث في حقوق الإناث"

ومن الأدب الشعبي نظّم أحد سكان مدينة الجزائر عاصر غارة الدنمارك وقنبلة بعض المباني سنة 1184هـ/1770م في عهد الداي محمد بابا جاء فيها:

تبات الرياس واقفة تربط في الميزانة
بقلوب على الحرب لاهفة ماهم سي شبعانة
كيفاش الكافر يطمع في البهجى سلطانة المدن
من فيها رجال يدفعوا عنها كل بلا من الفتن [58]

وللشيخ عبد القادر الجزائري وهو من أعيان البلدة قصيدة طويلة يرثي بها العاصمة بعد نكبة 1830.

مزغنة سلطانة المدون بالجملة

الأجناس تخافها في البرّ وبحرين

من جهة البحر قاع الناس تخافها

برج الفنار منو كي مذعورين

يا سامعين هذا القصّة خليو ذا الأمر يصرف

حسراه وين ذيك المرسى وغنايم لقهاوي وملف

اقطر مات بهم رصىبسناجق لحرير ترفرف

قرصان داخلة للمرصىقداش من أسير مكتّف

للكافرين كانت بخصة الأجناس قاع فيها تحلف

منها لجنوس ولات نسا من جا يطل يمشي زاعف

كلمة لابد منها

ينهي الأستاذ مولاي بالحميسي، بحثه الأكاديمي هذا بالحديث عن ما تعوّد عليه الباحثون الغربيون بوصف الجزائر بأوصاف قاسية وصور قبيحة ومزاعم منافية للحضارة والأخلاق، وأكد أن ماكتبه حول العلم والتعليم في مدينة الجزائر العامرة، يمحو ما كتبه بعض الجزائريين [59] فمنهم من قال : " ... انخفض مستوى التعليم

والثقافة في مدينة الجزائر رغم أنها كانت عاصمة البلاد بل أهمل الأتراك التعليم في كامل القطر الجزائري...

والقول غير صحيح إذ تشجيعات الدايات والبايات [60] مدوّنة في الكتب وإسهامهم بالنفقات والتبرعات والمبادرات أنجب فحولا من الكتاب والشعراء، وهم بدورهم جلبوا للعاصمة أتباعا وأكسبوها إشعاعا فاستفادوا وأفادوا وأكبر فضلهم علينا أنهم حافظوا على لغة الضاد ومكّنوها وجعلوا من مدينة الجزائر (وهي ريحانة القاطن وسلوانة الزائر)مصرا ضاهى فاسا وتونس وعواصم المشرق والأندلس وتبقى الجزائر دوما كما دعى لها صاحب الزهرة النيرة: "... اللهمّ أدمها دار الجهاد، ومحلّ عزم واجتهاد، إلى يوم التناد، بحرمة أشرف العباد، وأكرم العبّاد..."

اللهمّ اجعل قراءتي لما كتبه شيخي الأستاذ الدكتور مولاي بالحميسي حول مدينة الجزائر أو قبلة الدارسين وملتقى العارفين ، نورا له في قبره، ومتكئا له في جنة الخلد، على رفرف خضر وعبقري حسان.

الهوامش:

[1] **الأستاذ الدكتور مولاي بالحميسي، مسيرة وقلم (1932 – 2009)**

بتاريخ 1 أكتوبر 2009، فقدت الجزائر واحدا من كبار المؤرخين على المستويين العربي والمتوسطي، آلا وهو الأستاذ مولاي بالحميسي.

والأستاذ مولاي بالحميسي من مواليد 17 جانفي 1930 بمازونة، والمعلومات التي سأوردها بشأنه والتي تمثل سيرته الذاتية والعلمية تسلمتها منه قبل وفاته بنحو 10 سنوات، إضافة الى البحث الخاص بمدينة الجزائر ، مرقونا على الألة، وهو موضوع قرائتنا هذه.

المؤهلات العلمية

حاز على شهادة البكالوريا تخصص علوم كما أخبرني بذلك، وتحصّل أيضا على شهادة عليا في الأدب من جامعة "أكس أون بروفانس" سنة 1963، وكذا شهادة التبريز في الأدب العربي سنة 1966، كما حاز على شهادة الدكتوراه "الحلقة الثالثة" سنة 1972، من جامعة "أكس" ثم شهادة دكتوراه دولة من جامعة بوردو سنة 1985.

بدأ عمله في سلك التعليم سنة 1955 إلى غاية سنة 2000، قضى منها نحو 35 سنة في التعليم العالي. تولى عدة مناصب في قطاع التربية والتعليم، وكذا التعليم العالي، منها مفتش أكاديمية التعليم لمنطقة وسط البلاد سنتي 1964 و 1965، ثمّ مديرا للمركز البيداغوجي للتعليم العالي لجامعة الجزائر من 1968 إلى 1973، ثمّ مديرا لمعهد التاريخ سنتي 1987

و 1988، كما عيّن رئيسا للجامعة المغاربية، ورئيسا للمجلس العلمي لمعهد الأثار بجامعة الجزائر.

انتخب الأستاذ مولاي بالحميسي عضوا شرفيا بمعهد أتاتورك بأنقرة سنة 1986، ونائبا لرئيس الجمعية الدولية لمؤرخي البحر الأبيض المتوسط بمدينة روما الإيطالية.

أبحاثه ومؤلفاته باللغتين العربية والفرنسية:

صدر للأستاذ مولاي بالحميسي العديد من المؤلفات أغلبها باللغة الفرنسية:

- Edition critique des Ghazawat de' ArrudjwaKhayreddine. (Thèse de 3éme cycle) Aix, 1972.
- Marine et marins d'Alger à l'époque Ottomane 1516-1830 (Thèse d'état) Bordeaux III, 1986.
- L'Algérie vue par les voyageurs Marocains à l'époque Ottomane (en arabe) Alger, 1979.
- Histoire de Mazouna des origines à nos jours. (1981).
- Histoire de Mostaganem des origines à nos jours. (1982)
- Histoire de la Marine algérienne. (1986).
- Captifs algérien et l'Europe chrétienne. (1988).
- Alger, la ville aux mille canons. (1990).
- Histoire d'Alger par ses eaux. (1990).
- Lectures algéroises (séries d'articles sur la capitale).
- Alger, l'Europe et la guerre secrète. (1995).

المقالات المنشورة باللغة العربية.

- الجزائر وقضية القرصنة .مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 4، 1968.
- المؤرخ الجزائري: التنسي. مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 5، 1968.

- غارة شارلكان على مدينة الجزائر (1541)بين المصادر الإسلامية والمسيحية. مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 6. 7، 1969.

- تحرير وهران (1708) مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 9، 1970.

- مدينة ورقلة من خلال الرحالة المغربي العياشي. مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 9، 1970.

- العلاقات الجزائرية الأسبانية: معاهدة السلم سنة 1786. مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 11، 1974.

- الثورات المحلية ضد الإدارة التركية من خلال وثائق إسبانية غير منشورة. مجلة الثقافة. عدد. 48 سنة 1978.

- معركة الزلاقة (الأندلس) في 1086 وتداعياتها. مجلة الجندي، عدد 37/مارس 1980

- الحروب الصليبية ضد المغرب والمقاومة الشعبية. مجلة الجندي، عدد 37/مارس 1980

- شرطة الجزائر في العهد التركي. مجلة الشرطة. عدد 19.

- السياسة الضريبية في الجزائر في نهاية العهد التركي. أشغال المؤتمر الثالث لتاريخ المغرب. وهران. 26- 28 نوفمبر 1983.

- الجوسسة الأوربية في الجزائر خلال العهد العثماني واحتياطات حكام الإيالة لمجابهتها. مجلة الباحث. عدد 3. 1985.

- إرشاد الحيران في أمر الداي شعبان (1689- 1695). مجلة الدراسات التاريخية. جامعة الجزائر. عدد 2. سنة 1986.

- حلقة في حروب القرصنة: أسر الجزائريين في البحر وعلى السواحل خلال العهد العثماني. مجلة الشرطة. عدد 36. سنة 1988.
- عودة الإسبان لاحتلال وهران سنة 1732. الجزائر. 1988.
- الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني مجلة « Le Médersien » عدد. 2. 1993.
- بناء السفن البحرية في الجزائر من القرن 16 إلى القرن 19. مجلة الآثار. معهد الآثار. جامعة الجزائر. عدد خاص. 1995.
- إحياء المولد النبوي في الجزائر خلال القرن الثامن عشر.

Articles de revues

- En français.

- Une lettre inédite sur Alger au XVIIIème siècle.
- Relations entre Algériens et Italiens à l'époque Ottomane.
- Relations et description de la ville d'Oran au XVIIIème siècle.
- Régence d'Alger et Eglise Catholique (1516-1830).
- Le Ramadhan à Alger sous les Turcs.
- Un fils de Guelma, Khoualdji Salah.
- Aid el fitr sous les Turcs.
- Un Rais algérien à Marseille en 1712.
- Un épisode de la résistance Algérienne: l'attaque de Gigel en 1664.
- Tolérances religieuses: l'exemple d'Alger.
- Captifs chrétiens en Algérie: Histoire ou Hystérie?
- Alger et le Caire ou la solidarité séculaire.
- Une tragédie aux portes d'Alger: l'extermination des Aoufias.
- Toscane et Algérie (X-XIXème siècles).□

[2]Dans un article publié dans la revue « Africa » de l'année 1987, Guy Turbet-Delofà souligné que M. Belhamissi a, plusieurs années durant, patiemment exploré, entre autres, les riches dépôt

d'archives de Paris, Aix en Provence , Marseille, Toulon, et d'Alger.□

[3]« Il est inutile de parler l'état des sciences à Alger, ou elles n'existent pas ou elles sont prisées, le Coran est toutes leur littérature »
Shaller (W), Esquise de l'Etat d'Alger, p. 37.□

نشر كتاب وليام شالر باللغة الانجليزية في بوسطن سنة 1826، وضعت له ترجمة فرنسية نشرت في باريس سنة 1830، قام بترجمته إلى الفرنسية M.E. Blanchi وهو المترجم الرسمي للملك شارل العاشر الذي خطط حملة لاحتلال الجزائر. وقام الأستاذ إسماعيل العربي بترجمة النسخة الانجليزية التي نشرت في بوسطن إلى العربية وعلّق عليها، وأتمّ الترجمة بحسب ما ورد في مقدمة الكتاب في 16 مايو 1977، ونشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر سنة 1982، حول التفاصيل ينظر إسماعيل العربي، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816 – 1824) منشورات ش. و. ن. ت، الجزائر 1982، ص 18. أما العنوان الأصلي بحسب ما ورد في كتاب إسماعيل العربي فهو:

SKETCHES OF ALGIERS
Containing An Account
of the
Geography, Population, Revenues, Commerce,
Agriculture
Arts, Civil Institutions, Tribes, Manners, Language
and
RECENT POLITICAL HISTORY
OF THAT COUNTRY
By William SHALER
American Consul General at Algiers

كيف يتحدث وليام شالر عن فقدان العلوم في الجزائر، بينما تحتوي مذكراته المنشورة في بوسطن سنة 1826، على التجارة والزراعة والفن والقوانين واللغة وغيرها، وكل هذا من وحي العلوم.

[4]أفرد الأستاذ أبو القاسم سعد الله فصلا كاملا في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، حول المؤسسات الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، كما تناول دور مؤسسات التعليم من كتاتيب ومساجد وزوايا ومدارس، بالإضافة إلى المكتبات العامة والخاصة، كما خصص فصلا آخر للتعليم كنظام ومنهج. والفصل الخامس من الجزء الأول ل: فئة العلماء. ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 – 1830، المجلد الأول، الجزآن 1– 2، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2005، ج1، ص. 225– 310. ومن 311– 384، ومن الصفحة 385– 454.

[5]ولد بملطية وهي بلدة على نهر الفرات سنة 844هـ/1440م من أسرة علم وكتابة.

[6]أبو زيد بن محمد بن مخلوف ...الثعالبي المتوفى سنة 875هـ/1471م شيخ المدينة ووليها، مفسر ومؤلف له العديد من الكتب، لعل أهمها:

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن. في أربعة أجزاء.
- روضة الأنوار ونزهة الأخيار. في الفقه

[7]أي سقوط غرناطة سنة 1492م.

[8]معاصر للسلطان الزيّاني أبي حمو موسى الثاني المتوفى سنة 791هـ/1389م.

[9]حققه الأستاذ الدكتور مختار حساني.

[10]من فضلاء أهل الأندلس وعلماء القرن 8هـ/14م، له رحلة الى المشرق لأداء فريضة الحج سمّاها: " تاج المفرق بتحلية علماء المشرق "

[11] يذكر الأستاذ عمار هلال رحمه الله، أنه أحصى، حوالي 13 عالما جزائريا كانوا في المغرب الأقصى خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، ومن علماء هذا العصر في المغرب مرتبين بحسب تاريخ وفاتهم:
الوهراني أحمد، المتوفى سنة 920هـ/1514م، التلمساني محمد بن محمد، المتوفى كذلك سنة 920هـ/1514م، محمد شقرون، المتوفى سنة 929هـ/1522م، عبد الواحد الونشريسي، المتوفى سنة 935هـ/1539م، ابن جيدة الوهراني، المتوفى سنة 951هـ/1544م، علي بن عيسى التلمساني، المتوفى سنة 980هـ/1572م، أحمد العقباني، المتوفى سنة 980هـ/ 1572م، محمد بن عبد الرحمان التلمساني، 908- 981هـ/1502- 1573، محم محمد شقرون 908- 983هـ/1502- 1575م، أحمد بن أحمد بن محمد التلمساني، المتوفى سنة 984هـ1582م، أبو القاسم بن سلطان القسنطيني، المتوفى سنة 995هـ/1586م، يحي الزواوي، المتوفى سنة 999هـ/1590م، محمد بن الوقاد، المتوفى سنة 1001هـ/1593م، أحمد المقري، 986-1041هـ/1578- 1631م. ينظر، هلال عمار، العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين 4- 14هـ. مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد التاسع، السنة 1415هـ - 1995م، ص، 28.

[12] من القضايا الهامة خلال هذه الفترة، ما نتج من أوضاع في المغرب الإسلامي، الذي عرف خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي تطورات هامة مثل استفحال الغزو الخارجي الإسباني والبرتغالي في العقدين الأولين من القرن المذكور، في مقابل التفكك الداخلي.

[13] شهدت بلدان المغرب العربي الحديث أحداثا تاريخية هامة، انعكست على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لهذه البلدان.

ولعلّ الحدث الأبرز، هو التفكك السياسي، وظهور قوى أو كيانات سياسية متصارعة ومتقاسمة للنفوذ، ونعني بذلك بنو حفص، وبنو زيان، وبنو مرين. وقد نجم عن ذلك الضعف، الذي تردت فيه الدولتان الحفصيةوالزيانية، اضطراب الجزائر وتجزؤها إلى عدّة وحدات سياسية متنافرة، فأغلب المدن الساحلية كوهران، وتنس، وشرشال والجزائر، ودلس، وبجاية، وجيجل، والقل وغيرها، كانت في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، إمّا تحت حكم أمير زياني منشق عن الدولة الزيانية كأبي يحي بن محمد الزياني في تنس، أو عن الدولة الحفصية، كعبد الرحمان الحفصي في بجاية، أو تحت حكم مجلس منتخب من سكان المدينة، كوهران، أو شيخ قبيلة كسالم التومي، شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر.

[14]ومن أبرز القضايا في بلاد المغارب، قضية التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ومهما يكن من أمر، وبطريقة تكاد تكون سحرية تمّ إلحاق الجزائر بالممتلكات العثمانية. وكان لتبني الدولة الفتية بزعامة خير الدين، الجهاد وحماية ديار الإسلام من الغزو الصليبي الداهم أثر واضح على الحوض الغربي للمتوسط. لقد أنقذ العثمانيون بتدخلهم في بداية القرن العاشر، المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد. وقد كانوا في ذلك غزاة مجاهدين تحالفوا مع الجزائريين لصد العدوان الصليبي وحماية الثغور وإقامة حكم إسلامي ثابت وقوي ظل طيلة ثلاثة قرون شوكة في حلق العدو وقذى في عينه وصخرة تحطمت عليها كل محاولات الغزو الخارجي.

[15] ومن أهم الوثائق التي أرخت للعلاقة بين الجزائر والدولة العثمانية، تلك الرسالة التي أرسلها أهالي مدينة الجزائر للسلطان العثماني سليم الأول، والتي تضمنت عرض الطاعة والولاء على السلطان العثماني سليم الأول، إلى جانب عرض حال عن التحرشات الاسبانية على الجزائر، واضطرار مدينة الجزائر إلى طلب الصلح من إسبانيا، كما تضمنت خبرا عن قدوم عروج، وحصاره لبجاية مع ابن القاضي قصد تخليصها من الكفار، واستشهاد عروج في نواحي تلمسان، ثم تولي خير الدين بعده، وكيف عزم خير الدين على الارتحال وتمسك الأهالي به.

ولعل من أبرز القضايا التي أثارت اهتمام الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث، ما ترتب عن قرارات السلطان سليم الأول بشأن الجزائر، ومن أبرز تلك النتائج.

- التحاق الجزائر رسميا بالدولة العثمانية اعتبارا من عام 1519.
- رفع الدعاء للسلطان سليم الأول على المنابر في المساجد، وضربت العملة باسمه.
- ارسال عدد من الجند الى الجزائر جاء نتيجة استغاثة أهالي الجزائر بالدولة العثمانية، وبذلك فهي استجابة لرغبتهم، ولم يكن دخولها غزوا أو فتحا عسكريا ضد رغبة أهل البلد.
- إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمال إفريقية يدخل تحت السيادة العثمانية، وبذلك أصبحت الجزائر ركيزة لحركة الجهاد في البحر المتوسط.

- التحاق الجزائر بالدولة العثمانية جعل هذه الأخيرة حريصة على مدّ نفوذها إلى الأقاليم المجاورة لتوحيدها تحت راية الخلافة الإسلامية، وتوحيد الجهود، والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الأسبان.
- إعداد الدولة العثمانية لمشروع إنشاء أسطول بحري ثابت لها في سواحل شمال إفريقية، وقد ارتبط هذا الأسطول في البداية باسم الإخوة بربروس.

[16] يذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله، أن العثمانيون مدينون حضاريا للحضارات العربية والفارسية والبيزنطية، بالإضافة إلى تراثهم الخاص. لذلك يمكن القول بأن الجزائر العثمانية قد ذاقت من كل هذه الحضارات خلال العهد العثماني وهذا العامل ما زال لم يحظ باهتمام المؤرخين بعد.
ومن جهة أخرى أثروا في العمارة كالمساجد والأضرحة، وفي الموسيقى والخط، والمنشآت العسكرية والبحرية، وفي اللغة والملابس ونحو ذلك. وقد أنشئوا هم أيضا الأحباس التي تخدم جميع الأغراض الاجتماعية والعلمية. ومن أهمها وأشهرها أوقاف (سبل الخيرات) ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 – 1830، المجلد الأول، الجزأن 1- 2، الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي، بيروت 2005، ج1، ص. 149.

[17] فحص مدينة الجزائر يتميز عن غيره من فحوص المدن الجزائرية في العهد العثماني باتساعه وارتباطه بالمدينة من حيث النشاط البشري. فقد كان يشكل ظهيرا جغرافيا واقتصاديا لمدينة الجزائر مركز الحكم ومقر الإدارة المركزية للبلاد الجزائرية في العهد العثماني. فهو يمتد حول اسوار المدينة على شكل نصف دائرة قطرها حوالي اثني عشر كيلومتر، تحده من الشرق

والجنوب والغرب أوطان متيجة، ويحمل حسب جهاته الثلاث تسميات أبواب المدينة التي تنفتح عليه، فيعرف في الجهة الشرقية بفحص باب عزون، وفي الناحية الجنوبية بفحص باب الجديد، وفي طرفه الغربي بفحص باب الوادي، وكل قسم من هذه الفحوص يضم بدوره العديد من الأماكن التي يرد ذكرها عادة في الوثائق مقرونا بكلمة فحص. وقد أمكن لنا حصر التسميات التالية حسب جهات الفحص الثلاث:

- **فحص باب عزون:** عيون الربط، عين السماد، عين النعجة، العين الأزرق، عين السلطان، تاقرارت أو تاكرارت، أو تاقارارات، تافورة، تيفولت، وادي تيكلوت، دقن الحلوف، سيدي صاحب الطريق، كاف النسور، منزل المحلة، الحانة، العناصر، خنيس، الوشايحية، القبة، كرسي الجلوة،عوينات الجاج، بئر مراد رايس، بئر خادم، وادي القلعي، الحراش.
- **فحص الباب الجديد:** بئر الدروج، بئر طرايلية، الآبيار، مجبر القديم، يحي الطيار، عين بن عطية، أم العجائز، غيران الذيبة، بئر العلجة، برج مولاي حسن أو برج حسن باشا، برج مولاي محمد، رحاة الريح، الخندق العميق،بوقرة، القادوس، عين الزبوجة، السحاولة، بني ربيعة، حيدرة، بني مسوس، عين الرمانة، وادي الرمان، وادي الكرمة، زواوة (بين بني مسوس ودالي ابراهيم)
- **فحص باب الوادي:**السد، الفرن، آجنان، الرملة، المنية، بومعزة، الحمام المالح، حارة الجنان، حارة باب الوادي، القطار، وادي البنيك، زغارة، بوسكور، وادي قريش، بو النور، عيون السخاخنة، مرسى الذبان، بوزريعة. ينظر، سعيدوني ناصر الدين، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر: دلالات اجتماعية ومؤشرات اقتصادية، مجلة دراسات

إنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، عدد خاص، أعمال ندوة الجزائر 30/29 ماي 2001،حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هامش ص 60. راجع أيضا: **ناصر الدين سعيدوني**، الأوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني ضمن كتاب "دراسات تاريخية في الملكية الوقفية والجباية" بيروت دار الغرب الإسلامي، 2001، ص ص 255-291.

Nacereddine SAIDOUNI, l'Algérie rural à la fin de l'époque Ottomane (1791-1830) Dar AL Gharb Al-Islami, 2001, pp 17-80.□

[18] منها أنه في سنة 1033هـ/1623م اجتمع الأندلسيون من أصحاب الحرف والصناعات واشتروا دارا بأموالهم الخاصة وبنوا زاوية بسوق السمن لتعليم الصغار والكبار. وواصلت هذه المؤسسة عملها إلى سنة 1843.

[19] ومعنى ذلك مدرسة في لغة العاصميين أي أهل مدينة الجزائر، ولا زالت الكلمة متداولة في منطوقهم إلى يومنا هذا.

[20] هو أبو زيد عبد الرحمان الفاسي، أديب وكاتب ورحّالة، ولد سنة 1087هـ، تعلّم بفاس ثمّ سافر طالبا المزيد من العلوم. له تأليف لطيف في فتح وهران الأول سنة 1708م.

[21] وصل عدد المدارس في مدينة الجزائر وحدها خلال العهد العثماني، نحو مائة مدرسة عمومية وخاصّة. وكان التعليم فيه يتم مرتين في اليوم. في الصباح وبعد الظهر. أما عدد التلاميذ في حجرة الدرس، فلم يكن يتجاوز خمسة عشر تلميذا. وكان التلاميذ يدفعون للمدرّسين من ثلاثة إلى أربعة أرباع بوجو في كل قمر، كما كان بعض المدرسين يتلقون منحة سنوية من الحكومة، إلى جانب الهبات والهدايا التي كانت تمنح لهم في المناسبات من أولياء التلاميذ. ينظر، أرزقيشويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد

العثماني 926- 1246هـ/1519- 1830م. دار الكتاب العربي، الجزائر 2009، ص 482. وينظر أيضا:

ROZET (M), Voyage dans la régence d'Alger, ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique.3 tomes, éd, A. Bertrand. Paris 1833. □

[22]شاهد الرحّالة الإيطالي ذلك أثناء وجوده بمدينة الجزائر سنة 1813.

« Les maitres tracent d'abord les lettres avec un crayon et les écoliers forment ensuite avec la plume… »Relation d'un séjour à Alger… Pananti (Filippo)□

[23]« Les Marabouts tiennent les écoles (Kuttab). Ils lisent en chantant (?). Quand un écolier fait une faute, il a des coups de bâton sous les pieds. Mais quand il sait l'Alcoran par cœur, on le promène par la ville au son des instruments, bien vêtu, l'Alcoran sur la tête, suivi de tous les écoliers »□

[24]بيتيس دي لا كروا هو مترجم الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، أقام في الجزائر في عهد الداي شعبان الذي حكم الجزائر خلال الفترة الممتدّة من سنة 1689 إلى سنة 1695، وكتب مذكراته التي نشرها بعنوان:

PETIS DE LA CROIX, Un Mémoire sur Alger 1695 (E.A.I.E.O) par EMERIT (M) 1953

وفي إحدى رسائله لملكه لويس الرابع عشر، نصحه بأن السلام مع الجزائر ضروري لفرنسا.

« La Paix avec Alger est nécessaire pour la France » □

[25]هناك من لاحظ أنه رغم افتقار الجزائر إلى المعاهد العليا في حجم الأزهر والقرويين والزيتونة، إلا أن الدروس التي كانت تلقى في بعض جوامعها تضاهي دروس جامع الأمويين في دمشق والحرمين الشريفين. ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص وما يليها.

[26] كانت زاوية بنهج باب ادزيرة– قرب الجامع الكبير – تحتوي على مسجد ومدرسة للأولاد وبيوت موزعة على طابقين يسكنها العلماء الغرباء وفي أسفلها المرافق ومحلات للكراء وقد انتهى بناؤها سنة 1039هـ/1630م.

[27] من معاصري سيدي عبد الرحمن الثعالبي (توفي سنة 884).

[28] من المراجع التي ذكرها الأستاذ مولاي بالحميسي نذكر، " جمع الجوامع " في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب السّبكي الشافعي، وكانت قراءة هذا المصنف تدوم أربعة أشهر.

- ومختصر ابن الحاجب "مختصر منتهى السؤال والأمل، في علم الصول والجدل"، وابن الحاجب جمال الدين ، فقيه مالكي ولد وتوفي بمصر 570 – 646هـ/1174– 1244م.
- وفي المعاني والبيان استعملوا تلخيص المفتاح لجلال الدين محمد الشافعي القزويني، خطيب دمشق، توفي سنة 739هـ
- وهناك متون أخرى ساهمت في التكوين كنظم عبد الرحمن الأخضري " الجوهر المكنون في الثلاثة فنون" وهي المعاني والبيان والبديع، والأخضري أديب ومنطقي وصوفي (918– 989 هـ/1512– 1575م، وهو مدفون بزاوية بن طيوس من قرى بسكرة.
- وألفية العراقي في المصطلح، (وعلم المصطلحات علم قائم بذاته اليوم في الجامعات العالمية).
- وصحيح البخاري في الحديث.
- ومختصر الخليل بن إسحاق المالكي في الفقه.
- والموطأ للإمام مالك.
- وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وهو أبو الفضل بن موسى 476– 544هـ/1083– 1149م من مواليد سبتة تولى

القضاء بها ثمّ بقرطبة، له أيضا " المدارك في معرفة أعلام الإمام مالك".

- إضافة إلى كتب السيّر وبردة البوصيري وخزرجية الشريف الغرناطي في العروض، وغيرها من الكتب التي تمثّل قسطا وافرا من العلوم العقلية والنقلية، وكل فنّ كان شرطا مطلوبا في العالم.

[29] يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي أن لابن زكور كتاب " نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان "، فيه وصف كامل للحياة الثقافية في نهاية القرن 17 بالعاصمة ووصف رائع للمدينة وضواحيها.

[30] والإجازة هي ما يقابل في عصرنا الشهادة العلمية التي تؤهل حاملها التوظيف أو التدريس أو القضاء أو المنصب الرفيع. ولكي يحظى المتخرّج بثقة أهله وأناس ناحيته وأعيان بلدته لابدّ أن يكون نص الإجازة مفصلا يذكر أسماء المشايخ وشيوخ هؤلاء وأين درسوا والكتب التي قرّرت والمواد التي درست والمدّة التي قضيت والنتائج التي حصلت كما يذكر المجيز حرص الطالب وقابليته " وذهنه الثاقب، وفهمه الصائب " **لأن هذه المعلومات المسجّلة تعطي صورة عن مستوى الفائز وتمنحه التقدير والاحترام. وتختم الإجازة بقولهم " فأجزته أن يرويّ عني ما رويته عن أشياخي من الفنون التي أسردها ...**

[31] هو الذي حرّض الدّاي حسن باشا (1092 – 1094هـ/1681– 1683م) على مهاجمة وهران وكان قد احتلّها الأسبان سنة 1509 وقبلها تمّ احتلال المرسى الكبير سنة 1505، بقوله:

نادتك وهران فلبّ نداها وأنزل بها لا تقصدنّ سواها

[32] بلغ عدد المشايخ بالجامع الكبير في عهد ابن زكور 19.

[33] وصف ابن زكور فقال : " دخلت الجزائر 1094هـ/1683م ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النواضر التي غص ببهجتها كل عدو كافر، فلذلك

يتربصون بها الدوائر ... غرر أعلام ينجلي بهم الظلام ، وشموس أئمّة، تنفرج بهم كل غمّة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمّة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار، طلعوا البروج سعودها بدورا وألبسوها رواء ونورا..."

[34]شاهد ابن زكور الفاسي هجوم الفرنسيين بحرا على العاصمة بقيادة دوكين DUQUESNE فوصف الغارة وصفا رائعا: " يرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزمان الغابر... غصّ بسفاين النّصارى بحرها، فزلزلوا قصورهم النّواضر، بصواعق أمثال القناطر، ورجموا مصانعهم العادية، بشهب هندوانية عادية، وما أدراك ما هي نار حامية، لها صعقة الرّعد القاصف، وسرعة البرق الخاطف، وهجوم السيل، وشول ظلام الليل، إلى نار ترمي بشرر كالقصر ، ورائحة تصرع من على مسافة القصر... اللهم ارفع عن تلك المنازل، هذه الزلازل وغلّبهم على ذلك العدو النازل."

- حول حملات الفرنسيين على مدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر. ينظر، إبراهيم سعيـود، الداي شعبان وسياسته الخارجية 1689 – 1695. مذكرة السنة الأولى ماجستير نظام كلاسيكي، بإشراف الأستاذ الدكتور مولاي بالحميسي، معهد التاريخ جامعة الجزائر 1988.

[35]يقول الأستاذ مولاي بالحميسي: كثيرا ما ترددت هذه الشهادات في كتب من وفدوا إلى بلادنا فقالوا:" فأنزلنا الشيخ بمنزله الكريم وقابلنا بالترفيع والتكريم..." أو " رفعوا من قدري بجلّوا من أمري..."

[36]وليست الغاية من هذا "الامتحان" التّعجيز أو الحطّ من شأن " الضيف " ولم تكن هذه النوادي "محاكم تفتيش" كما زعم البعض دون أن يعرفوا حقيقة الأمور بل كان الاجتماع لتدقيق المسائل والاطّلاع على ما يجري في الأمصار من طرق التدريس والحصول على المعارف واكتشاف أوجه النّظر

وإبراز الثقافة والتعرّف على المؤلفات النادرة. فالعالم مسؤول على صحة المعلومات وسلامة المحصول.

[37]هو أبو الحسن علي بن محمد التمقروتي، نسبة إلى تمقروت بوادي درعة بالمغرب الأقصى ولد حوالي 1560م، وتعلّم بزاوية تمقروت ثم بدأ يجول وقلّد مناصب هامّة ورسمية ببلاط مراكش،(توفي سنة 1003هـ/1594– 1595م) وفي سنة 1581م، خشي أحمد المنصور سلطان المغرب، أن يشنّ أتراك الجزائر غارة على بلاده فقرر إرسال بعثة إلى القسطنطينية ومنذ ذلك الوقت تكررت السفارات إلى اسطنمبول تحمل الهدايا إلى الخاقان، وفي سنة 1589 كلّف السلّطان السعدي أحمد المنصور السفير التمقروتي، بمهمّة إلى اسطمبول عاصمة الدولة العثمانية، دامت من 1589 إلى 1591، ومرّ الوزير ذهابا وإيابا ببلدنا ونزل بالعاصمة وسجّل انطباعاته وملاحظاته في رحلته المسمّاة " النفحة المسكية في السّفارة التركية " ينظر، مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 16.

أمّا حول الرحلة المسمّاة " النفحة المسكية في السّفارة التركية " بتفاصيلها منذ وصوله إلى هنين ومروره بوهران ومستغانم إلى تنس والجزائر و دلس وبجاية ثمّ القل وبونة ومنها إلى بنزرت في تونس، ثم العودة بعد استكمال رحلته إلى اسطنبول ثم العودة. ينظر، مولاي بالحميسي، نفس المرجع، ص 45 وما يليها.

[38]هو أبو القاسم بن أحمد بن علي ... الزياني، رحّالة وأديب ووزير مغربي ولد بفاس سنة 1147 هـ/ 1734م، وتعلّم بها إلى غاية 1169هـ/1759م، عيّن الزياني كاتبا بالقصر الملكي ومكّنته بعض الحوادث التاريخية من أن يبرهن على مهارة سياسية ومقدرة إدارية حتى قرّبه السلطان محمد بن عبد الله وكلّفه

بعدّة مهام منها التفاوض مع القبائل المتمرّدة، وفي سنة 1200هـ/1786م، عيّن لسفارة إلى إصطمبول ، واستقبل في عاصمة العثمانيين استقبالا رسميا ودامت سفارته هناك ثلاثة أشهر، بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله في رجب 1204هـ/1790م، خلفه ابنه يزيد فتعرّض الزياني لشتى الإهانات وصودرت أملاكه، وأدخل السجن، ولمّا تفي السلطان يزيد خلفه ابنه سليمان فعاد للزياني شأنه ونشاطه... نزل الزياني بوهران ضيفا على الباي محمد الكبير ثم التحق بتلمسان وقضى مدّة طويلة بين علمائها، ثم قصد مدينة الجزائر فأكرمه أهلها وحكّامها، ومها رحل إلى اسطمبول ثانية، وجال في المشرق بين عواصمه إلى أن عاد إلى الجزائر قادما عن طريق تونس وقسنطينة، وكان يفكّر وهو بالجزائر – أن يستقرّ بتلمسان– غير أن ضغطا وإلحاحا عديدة من المغرب جعله يغادر مكانه المحبوب ويرجع في النهاية إلى بلاده إلى أن توفي في رجب 1249هـ/نوفمبر 1833م، ومن أشهر كتبه:

- الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب (في التاريخ العام)
- البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف (تاريخ الدولة العلوية)
- رسالة السلوك فيما يجب على الملوك (في السياسة)
- الترجمانة الكبرى (في رحلاته خارج المغرب الأقصى)

حول الزياني ورحلته" الترجمانة الكبرى "، وفوائدها الاخبارية . ينظر، مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص 20– 22، وص. 151– 195.

[39] يسمّيه الزياني " المسجد الجديد " رممّه الداي وزاد فيه سنة 1209هـ/1794م.

[40] راجع القصيدة في الجزائر من خلال رحلات ... المرجع السابق. ص، 192.

[41] نفس المرجع، ص 191.

[42] ولد سنة 1165 وتوفي سنة 1238هـ/ 1760- 1823م، في بيئة فقيرة جدا، نواحي جبل كرسوط (بالغرب الجزائري)، رحل به والده إلى نواحي متيجة قرب مدينة الجزائر، حيث عرف عن كثب الحكم العثماني، وهناك فقد والدته زولة وهو صغير، وهو يقول عنها إنها كانت كرابعة العدوية علما وورعا، بعد وفاة والده سافر مع أخيه الأكبر عبد القادر إلى المغرب، وهناك حفظ القرآن وشبّ، وعاد إلى معسكر بشيء من العلم، فوجد عالما قد طبقت شهرته آفاق الناحية، وهو عبد القادر المشرفي، الذي اشتهر بالإضافة إلى العلم التقليدي بالأخبار والتاريخ، فتتلمذ عليه أبو راس وتأثر به كثيرا، ولا يمكن أن يكتب فصلا عن التاريخ والتراجم في الجزائر خلال العهد العثماني دون الترجمة لأبي راس الناصر، فقد كان على رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية، عاصر أحداثا هامّة في حياة بلاده وفي حياة العالم الإسلامي قاطبة، ومن ذلك حملة أوريللي وحملة اللورد اكسموث الأوربيين على الجزائر، وفتح وهران الثاني، وثورة درقاوة ضد العثمانيين ، أمّا بالنسبة للعالم الإسلامي فلنذكر ظهور الدعوة الوهابية والحملة الفرنسية على مصر وصعود محمد علي وبداية الإصلاح في الدولة العثمانية، وقد أثرت هذه الأحداث وغيرها على مزاجه وأحكامه.

كتب أبو راس أكثر من غيره من الكتّاب الجزائريين، ورغم أنه ألّف في كل فرع من العلوم المعروفة في وقته، فإن أغلب كتبه في التاريخ والأنساب والأخبار، وقد ذكر هو نفسه ثلاثة وستين كتابا مبتدئا بالقرآن ومنتهيا بالشعر، وينسب إليه بعضهم 137 كتابا، ومن كتبه التي لم يذكرها في رحلته عشرون كتابا معظمها في التاريخ والأنساب أيضا، وكثير من هذه الكتب قد ضاع، ومن كتبه:

- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.

- الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.
- الدرة الأنيقة.
- إسماع الأصم
- الحلل السندسية... وغيرها

والغريب أن بعض مؤلفات أبي راس قد ترجمت ونشرت بالفرنسية، ومن الكتب المنسوبة لأبي راس ، كتاب في أخبار ملوك الترك والروم، وآخر في ملوك فرنسا، وآخر في أنساب الجن. ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(1500– 1830) المجلّد الأول، الجزآن 1 و 2، الجزء 2، ص. 376 وما يليها.

[43] المتوفى سنة 1185هـ.

[44] يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي بأن عبد القادر المشرفي الغريسي (توفي سنة 1192هـ) يدعى إمام الرّاشدية له كتاب " بهجة الناظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر".

[45] العقيدة الكبرى لمحمد بن يوسف بن شعيب السنوسي الحسني التلمساني المتوفى سنة 895هـ/1490م.

[46] عاصر الداي بكداش.

[47] القصيدة منشورة في : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الجزائر 1972.

[48] ومحمّد بن رأس العين الأندلسي الأصل تولى نيابة الشيخ سعيد قدّورة مفتي الجزائر وكان كاتبا عند الباشا، وكان على قيد الحياة حوالي 1060هـ/1650م.

وأمّا عائلة قدّورة في الجزائر فقد تولّت الإفتاء المالكي بالجامع الكبير بالعاصمة أكثر من قرن بدون انقطاع. وكان مؤسس هذه الأسرة علميا هو

الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الذي تولى الإفتاء سنة 1028هـ واستمرّ إلى وفاته سن 1066هـ. ثمّ تولاه إبنه محمد من ذلك التاريخ إلى وفاته أيضا سنة 1107هـ، ثمّ خلفه أخوه أحمد الذي استمرّ في الإفتاء من هذا التاريخ إلى مقتله سنة 1118هـ، وبعد انقطاع قصير تولى الفتوى أيضا سعيد بن أحمد قدّورة من 1122 إلى سنة 1129هـ، ثم تولى الإفتاء آخرون يتصلون بعائلة قدورة بالمصاهرة مثل عبد الرحمن المرتضى الذي كان ابن أخت أحمد قدورة. وإذا كانت بداية هذه الأسرة في وظيفة الإفتاء سعيدة، فإن نهايتها كانت مأساة. فقد لعبت السياسة لعبتها القذرة واتهم أحمد بن سعيد قدورة بمعاداته للباشا محمد بكداش فحكم عليه بالسجن ثمّ بالموت خنقا فمات موتة حزينة. ينظر، أبو القاسم سعد اللّه، المرجع السابق، ص 357 وما يليها.

[49] ويعني بالطاغية الصّخري من رؤساء الدّواودة الخارجين على الحكم المركزي.

[50] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني

[51] تعدّ التحفة مصدرا أدبيا ممتازا يحتوي على 16 مقامة أدبية المبنى وعلى ما يقارب 800 بيت شعر نظمها أدباء جزائريون من معاصري المؤلف (ابن ميمون) فظمّ الكتاب ما رقّ من الأشعار، وما دقّ من الأخبار.

[52] أبو عبد اللّه بن محمد بن ميمون الجزائري من الذين شاركوا في جمع فنون عصره وما أغزرها في ذلك العصر، حقق التحفة الأستاذ محمد بن عبد الكريم. الجزائر 1972.

[53] قارنه الحفناوي بلسان الدين ابن الخطيب، والفتح بن خاقان وبديع الزمان والحريري والهمذاني.

[54] يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي أن والد قدور بن أرويلة، كان وكيلا على ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ولابن رويلة كتاب قيّم عنوانه " وشاح

الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب " حققه ونشره محمد بن عبد الكريم. الجزائر 1968.

[55] ولد عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري في مدينة الجزائر سنة 1107هـ وعاش إلى أن تجاوز التسعين، ولكننا لا ندري متى توفي بالضبط، والغالب على الظن أن الوفاة قد أدركته بالمشرق بين 1197 و1200هـ. وقد نشأ بمدينة الجزائر وتعلّم بها العلوم الشائعة عندئذ، حاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه النجاح، كما قال، كان لا يفارق الكتب، جلس للدروس في الجزائر وغيرها على مشائخ الوقت، أمثال المفتي محمد بن نيكرو، والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، والقاضي الأديب محمد بن ميمون الذي كان يسمّيه " شيخنا " ودرس في المغرب على أحمد الورززي، ومحمد البناني، وأحمد السرائري، وأحمد بن المبارك، وحصل منهم على إجازات سجلها في الجزء الثاني من رحلته، وتتلمذ في الطب على عبد الوهاب أدراق طبيب السلطان المغربي إسماعيل وأولاده، كما درس على الشيخ محمد زيتونة التونسي، وكان أيضا يسمّيه " شيخنا ". وكان ابن حمادوش معاصرا في الجزائر لعلماء بارزين، وخصوصا أحمد بن عمار ، وابن علي، والحسين الورتلاني، فهو إذن من إنتاج القرن الثامن عشر الذي عرفت فيه الحركة الثقافية نشاطا ملحوظا.

ورغم أن ابن حمادوش قد تثقف ثقافة معاصريه من لغة وفقه وأدب وتصوف وتوحيد، فإنه كان بطبعه ميالا الى الكتب العلمية، وقد روى أنه درس تآليفالقلصادي في الحساب ، وشرح محمد السنوسي علي الحبّاك في الاسطرلاب، والقانون والطلاسم لابن سنا، ومقالات إقليدس، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا، وتاريخ الدول للملطي، وهو في أخبار العلماء والأطباء، وطالع عمل عبد الرحمن الفاسي في علم البونبة، كما ولع بكتب

المنطق وألّف فيه، واعتمد ابن حمادوش على التجربة والمشاهدة. للمزيد حول هذا العلاّمة، ينظر، أبو القاسم سعد اللّه، المرجع السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 425 وما يليها.

ينظر أيضا كتاب:

- أبو القاسم سعد اللّه: الطبيب الرحّالة، الجزائر 1982
- نفسه، رحلة ابن حمادوش (لسان المقال) الجزائر 1983ز
- مجلّة مجمع اللغة العربية، دمشق، أبريل 1975.
- أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. الجزائر 1978.

[56] حول الطب والتطبّب في الجزائر والطرق المتّبعة في العلاج. ينظر:

Pananti(Filippo), Relation d'un séjour à Alger. Pratique des médecins.

وتقول لوسيان فابر:

« Il est certain qu'on ne saurait, dans la casba soulager un patient comme à Nimes ou à Chartres. A chaque élément sa flore, sa faune, ses sucs guérisseurs, ses pratiques médicales » Lucienne Fabre. Dans la Casba, pp 219-220.

[57] يذكر الأستاذ مولاي بالحميسي، أن كتابه هذا كتب في 23 صفحة. نقل إلى الفرنسية سنة 1896

[58] Venture de Paradis, « Un chant algérien au XVIIIème siècle » R.A 1894.
« La médecine et les quarantaines dans leurs rapports avec la loi musulmane »

[59] منهم الأستاذ حليمي صاحب كتاب: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830.

[60] يذكر الأستاذ أرزقيشويتام: " تمثّلت مظاهر الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني في التعليم ومؤسساتها ورجالاتها، وقد أجمعت المصادر أن نسبة ألّمية في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، كانت ضعيفة وأن

الثقافة كانت مزدهرة نسبيا قبل دخول الفرنسيين للجزائر في عام 1246هـ/ 1830م ... إن الميل إلى العلم والمعرفة كان متأصلا في النفوس.

وأكّد أحد القادة الفرنسيين هذه الحقيقة في عام 1250هـ/1834م إذ قال: " إن العرب كانوا يتقنون كلّهم القراءة والكتابة, وفي كل قرية توجد مدرستان. وأمّا عدد المدارس فقد كان يناهز ألفي مدرسة. كما توجد معاهد في الجزائر العاصمة وقسنطينة، ومازونة، وتلمسان، ووهران. وكان التعليم في الزوايا الكبرى زاهرا. فكان لكل طريقة دينية عدّة مدارس منتشرة في القطر...

ومن أولئك البايات الذين أولوا اهتماما خاصا للعلماء، باي معسكر إبراهيم المليانى 1165– 1170هـ/ 1751– 1756م، الذي قيل عنه: " أنّه كان محبا للعلم وأهله. وكان من شدّة محبته للعلماء يشتري لهم الجواري الحسان. وجعلهم طبقات بحسب تفاوتهم في العلم. وكان يكثر من جلوسهم والمذاكرة معهم. ومن تعرّض منهم لحاجة عنده، قضاها له فورا."

ويعدّ محمد بن عثمان من البايات الذين قدموا الكثير لقطاع التعليم، فأعاد بعث الحركة الثقافية بصفة عامة في بايلك الغرب...

وما أنجزه صالح باي في بايلك قسنطينة في مجال التعليم، يوحي بأن هناك منافسة بين الحكّام، فكانت إحدى أولويات صالح باي نشر التعليم، فشيّد المساجد وألحق بها المدارس، منها مسجد ومدرسة سيدي الكتّاني في عام 1189هـ/1775م، أتبعهما بمدرسة بالقرب من مسجد سيدي لخضر في عام 1203هـ/1789م...

حول الحياة الثقافية، ينظر كتاب أرزقيشويتام، المجتمع الجزائري ...سبق ذكره ، ولا سيما الفصل الثالث منه، ص 459 وما يليها.